من الذكريات

بقلم: د. يعقوب يوسف الغنيم

- الوطية صخور سوداء على ساحل البحر بالقرب من مباني المستشفى الأمريكي قديماً كان يستقطب الناس صيفاً حيث السباحة والصيد وقضاء الأوقات المسائية
- عدت إلى الوطية فلم أجد الصخور السوداء المعهودة التي أخفتها عن أعيننا يد غيرت كثيراً من معالم الكويت وهدمت عديداً من آثارها الشاهدة على تاريخنا
- السور الثالث للكويت بقيت بواباته (الدراويز) لكي تدل عليه لكن المقصب أزيل ونقل نشاطه لمكان آخر وبنيت بوابة خامسة للسور وهي دروازة الجهراء
- بوابة المقصب الأصلية هدمت على أيدي الغزاة العراقيين وامتد ضررهم للمباني التاريخية مثل بوم المهلب وسوق السلاح و«الغولة» وقد سارعت الحكومة لإعادة ما تهدم
- المبنى الجديد للبوابة الخامسة جيد ويحاكي تماماً الطراز القديم لبقية البوابات لكن «الغولة» المصاحبة لها اختلفت شكلاً وبنيت على هيئة غرفة مستقلة إلى جانب البوابة

تاقت نفسي إلى زيارة موقع من المواقع الأثيرة عندي مما هو في عاصمة بلادي الكويت التي ولدت فيها وعشت على ثراها، وسرت على قدمي في كثير من جوانبها.

طرأت لي هذه الرغبة في لحظة مباغتة أخذتني إلى الماضي، ودعتني إلى استكشافه من جديد.

أتحدث هنا عن نفسي يوم شغلتني ذكرياتي الماضية، فعدت بذلك إلى زمن غير زمني هذا الذي أعيشه اليوم، ولكنه كان زمنا جميلا استمتعت به، وبما مر بي خلاله.

كنت قد صحوت مبكرا في هذا اليوم الذي أتحدث عنه وأنا أردد على لساني ما قلته في زمن مضى، وهو:

قم وانتبه واسمع على الأثر
ماذا يقول الفجر للبشر
انظر إلى الأنوار ساطعة
غراء في عال ومنحدر
وانظر إلى الأطيار عالية
أسرابها تسمو على النظر

وهكذا سرت – مبكرا – وكأنما دعاني داع إلى زيارته، وكان هذا الداعي هو ساحل البحر عند الموقع الذي نعرفه منذ القدم باسم: الوطية.

يقع المكان الساحلي الذي نطلق عليه هذا الاسم منذ أمد بعيد بالقرب من المباني القديمة التي كان يحتلها المستشفى الأميركي عندما كان يعمل في الكويت. والوطية كما قلت عنها فيما مضى مجموعة من الصخور السوداء الصلبة نجدها على الساحل المقابل لهذا المستشفى إلى الغرب قليلا عنه. وقد سميت بهذا الاسم لوجود ما يشبه وطأة إنسان على صخرة من صخورها، وكان الناس يتحدثون كثيرا عن هذه الوطأة التي يُطلق عليها في لهجتنا لفظ: الوطية، فصار هذا الاسم علما على المكان كله.

وكان ساحل الوطية يستقطب الناس في أوقات الصيف خاصة حيث الاستحمام وصيد السمك، وقضاء الأوقات المسائية التي يجتمع فيها الأصدقاء من أجل تبادل الأحاديث وتلقي النسمات الباردة التي تأتي بها الرياح عبر ماء البحر.

ولقد تركت هذه الجلسات أثرا في الشعر الكويتي، إذ نلاحظ وصول بعض الأشعار التي ذكر فيها اسم هذا المكان حين عبر الشعراء الكويتيون عن سعادتهم باجتماعهم هناك، وعودتهم إلى ذكرياتهم فيه.

فهذا هو الشاعر داود سليمان الجراح يذكر الوطية في إحدى قصائده، ومبيته على ساحلها ليلا، ثم قيامه مع صحبه باصطياد الأسماك هناك، فيقول في قصيدة له جعل عنوانها: «من وحي الوطية».

يا صاح سل فتية بالرمل قد باتوا
أهاجهم من طيور الأيك أصوات؟
لو كابدوا الشوق مثلي في الغرام لما
ذاقوا المنام فإن القوم أموات

وفيها يذكر الوطية قائلا:

أشتاق للصخرة السمرا ووطيتها
يا ليت كل صخور البحر وطيات

وفيها يذكر صيده للسمك:

كم ليلة بت فيها ساهرا دنفا
أصطاد حوتا إذا ما جاء يقتات
يا ليت لي ألف كف أستعين بها
إذ كان للحوت ضربات ونبرات

ويذكر الوطية – أيضا – الشاعر عبدالله سنان محمد ضمن قصيدة له بعنوان: «فهد العسكر» وفيها يصف رحلة له مع زملائه من الشعراء والأدباء، كان منهم الشاعر فهد العسكر، وفيها يذكر جلستهم في تلك الرحلة على ذلك الساحل، وما دار فيها من أحاديث مؤنسة.

كما يصف ذلك الساحل الجميل الذي قضوا سهرتهم إلى جواره، فيقول في ذلك:

هلا وقفت سويعة في الوطية
فوق الرمال هناك قرب (الحظرة)
هلا سألت الساحل الرملي كم
جلس الرفاق به لعقد الندوة
سل صخره، سل رمله، سل أرضه
وسماءه، سل طيره في الغلسة

(الحظرة: مصيدة ذات شكل خاص، لصيد السمك وسوف يرد ذكرها).

ثم يستمر في قصيدته ذاكرا فهد العسكر، وهو يتساءل: أين تلك الليلات الجميلات اللاتي كنا نلتقي فيهن، فنتبادل الأحاديث الممتعة والأشعار الجميلة؟!.

ومن القصائد الجميلة التي أوحى بها هذا الموقع الساحلي الرائع قصيدة قالها الشاعر الكويتي حمود الناصر البدر على طريقة الشعر النبطي المعروف، وهذا الشاعر من مواليد سنة 1870م، وقد عاش في المنطقة القبلية من عاصمة الكويت وتوفي سنة 1915م. لا يذكر الشاعر في قصيدته التي نعنيها هنا اسم الوطية، ولكنه يصف الموقع وصفا يدل عليها. فهو يقول عنها أنها تقع في شرقي النفود. والنفود تل رملي يقع إلى الغرب من الوطية وهي في شرقيه.

وهذا النفود هو الذي يطلق عليه في الماضي اسم النفود الكبير. وقد أزيل حاليا. وأما النفود الصغير فهو الذي تم بناء المستشفى الأمريكي فوقه.

يبدأ حمود الناصر البدر قصيدته بقوله:

يا بو بدر وشلون ليل السهر
يوم ان قلبي شاف غاية هواه
شرقي النفود وفوق جال البحر
واللي يبي له من حبيبه لقاه

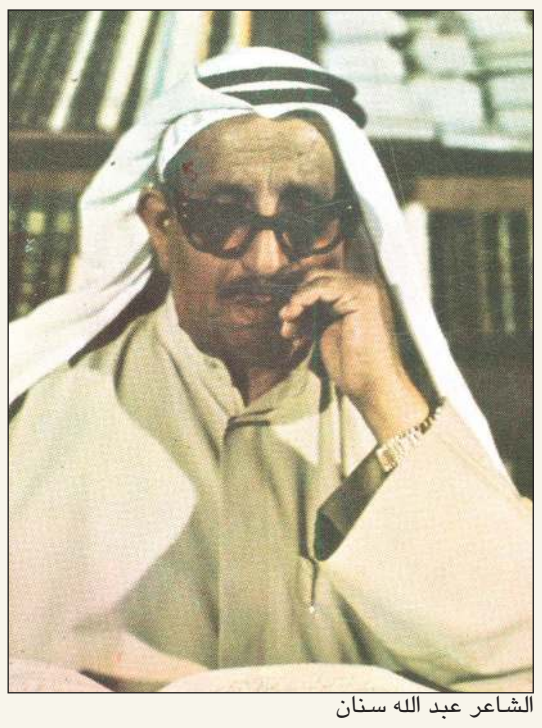

الشاعر عبد الله سنان

ثم يوجه حديثه إلى من يحب، فيقول:

ارفق إبحالي يا عديل النظر
وارحم إمحب طول هجرك طواه
كم من عذول في هواكم هذر
يلوي كلامه، ليت ربي لواه
لو هو امشاهد مثل عيني عذر
أو شال مثلي حبكم ما قواه

●●●

عبرت الطريق إلى الوطية وأنا مشغول البال بتلك الخواطر التي مرت ببالي طوال مسيري إليها، وكنت أشعر بشوق شديد إلى الذهاب إلى هذا الموقع الذي شهدته منذ كنت طفلا، وأخيرا وصلت إلى ساحل البحر، وألقيت بنظري على امتداده شرقا وغربا فلم أجد الصخور السوداء التي أعهدها، وقد كانت العلامة التي تدل على هذا المكان، فأخفتها عن أعيننا يد غيرت كثيرا من معالم الكويت، وهدمت كثيرا من آثارها التي كنا نعهدها ونشاهدها صباح مساء.

ولم أملك – في هذا الحال – إلا أن أعود بخيالي إلى تلك الأيام البعيدة، حين كنت صغيرا أتمتع بالسباحة على أمواج هذا الساحل الجميل مع عدد من أقراني في ذلك الوقت.

●●●

حين يطل المرء على الساحل قادما من قلب العاصمة عن طريق شارع عبدالعزيز حمد الصقر يجد على يساره المبنى الخاص بالمستشفى الأمريكي وإذا جعل البحر على يمينه، واتجه غربا وجد في البداية الساحل الذي يسمى الوطية، وكانت تميزه صخور سوداء تتعرض لضربات الأمواج عند هياج البحر. وهذا هو المكان الذي وقفت أمامه أول ما وقفت في رحلتي هذه. فصرت أتنسم عبير الذكريات الذي جاء لكي يعيدني إلى ذلك الماضي الجميل.

أقبلت على الساحل فشعرت بأنه يتحدث إليّ مذكرا بما مر بي من أيام. وكأنه يقول:

– أتذكر الأيام التي كنت فيها تأتي بصحبة أبيك إلى هنا، وكنت – وقتذاك – ممتلئاً بعدد كبير من روّادي؟

– أتذكر الازدحام الشديد حولي عند ارتفاع المد في يوم صيفي في عطلة من العطلات التي تمر بالبلاد؟

– أتذكر أولئك الذين يحضرون حيواناتهم المنزلية لكي يقوموا بغسلها من أجل تجديد نشاطها ونظافتها؟

– أتذكر النساء وهن مصطفات فوق الصخور يغسلن ثيابهن وثياب أهلهن؟

– أتذكر يوم انتشرت حولي أسراب طيور القطا، وهي كثيرة تلفت الأنظار، بحيث جعل الناس يفدون إليّ من أجل اصطيادها بعد سقوطها في مياهي؟

– أتذكر أن والدك اصطاد لك واحدة منها وكنت فرحا بها أشد الفرح؟

الشاعر داود سليمان الجراح

– أتذكر السفن التي تمر بي شرقا وغربا رافعة أشرعتها البيضاء الناصعة متجهة إلى حيث تريد؟

ثم أردفت الوطية قائلة:

كل هذا كان حولي إلى أن جاء زمان نسي فيه الناس اسمي، بل صعب عليهم الاستدلال عليّ.

●●●

ومضت في حديثها إلي قائلة:

– احتضنت عددا كثيرا من الحظور الخاصة بصيد السمك وكان أصحابها يمرون بي في كل يوم لالتقاط ما صادته لهم ثم يقومون بنقله إلى السوق.

– وشهدت من المترددين على هذه الحظور جاركم المرحوم غانم بن سلطان بو راشد، واستمعت إليه وهو يغني في أثناء مروره إلى عمله، وسمعته خاصة عندما مر بالمستشفى الأمريكي، وهو يقول:

يا ونتي ونة عليل إيداوونه
ويطوح الونات عند الأمريكاني

أو عندما يحادث الطيور البحرية قائلا:

يا طيور السيف ما شفتوا الحبيب
نابي الأرداف مردوع الشفاه
زول خلي يا سلام ويا عجيب
ليمشي ودك اتفكر في خطاه

– وشهدت ابن عمك أحمد عبدالله الغنيم، وكان كثير التردد عليّ. وهو مولع بصيد السمك، يمتلك أكثر من حظرة في جواري، وكان – أيضا – يهوى صيد الطيور رميا بالبندقية التي لا تفارقه مادام عندي، ولا ينزلها من فوق كتفه إلا وقد أصطاد ما شاء من الطيور.

– وأذكر أناسا كثيرين أترك الحديث عنهم لغيري ممن هم أكثر اتصالا بهم وبأعمالهم.

(الحظور: جمع حظرة، وهي شباك من القصب تدخل بينها الأسماك، ثم لا تستطيع الخروج منها).

●●●

استمعت إلى همسات ساحل الوطية، ثم سرت غربا بمحاذاة الساحل، فقد كنت لا أرغب في الابتعاد عن البحر ومنظره الجميل ولونه الأزرق، إلى أن وصلت إلى الموقع الذي ينتهي عنده سور الكويت الثالث من هذه الناحية. وعدت هناك إلى ذكرياتي، فخطر ببالي ما كنا نسميه: المقصب، وكان موقعه في الجانب البحري عند نهاية السور. وفي المقصب هذا كانت المواشي تنحر وتسلخ وترسل منه إلى سوق اللحم المتفرع من سوق الخضرة، ولفظ المقصب أتانا من اللغة العربية الفصحى، يقول مؤلف كتاب لسان العرب محمد بن مكرم بن منظور:

«أصل القصب هو القطع». ويضيف: قصب الجزار الشاة يقصبها قصبا إذا قطع قصبتها، ثم قطعها عضوا عضوا. ولقد أزيل هذا المقصب، ونقل نشاطه إلى مكان آخر، وأما السور الثالث للكويت فقد بقيت بواباته لكي تدل عليه.

وكان لهذا السور عندما أنجز بناؤه في سنة 1920م أربع بوابات واسعة (دراويز)، ومع ازدحام الناس والسيارات والأنعام (من أغنام وغيرها)، اشتكى الناس ضيق المداخل والمخارج إلى العاصمة، وطالبوا بإيجاد حل يقضي على هذه الظاهرة، فكان أن أمر الشيخ أحمد الجابر الصباح ببناء بوابة خامسة بالقرب من المقصب، فخففت الضغط على البوابة المجاورة لها وهي التي يطلق عليها في لهجتنا اسم: دروازة الجهراء.

هذا، وقد ذكر لنشأة البوابة الخامسة تاريخان مختلفان، أحدهما أنها بنيت في سنة 1927م، والآخر في سنة 1932م.

●●●

وقفت أمام البوابة الخامسة عند وصولي إليها لاحظت ما يلي:

أن مبناها جيد نسبيا، ولكنه يحاكي تماما الطراز القديم الذي نراه في بقية البوابات (تنطق في لهجتنا: دراويز وهي جمع: دروازة)، وكانت بوابة المقصب الأصلية قد هدمت على أيدي الغزاة العراقيين الذين غزوا الكويت وآذوا أهلها وامتد ضررهم إلى المباني التاريخية، فهدموا كل ما له علاقة رمزية بتاريخ البلاد فكان من ذلك هذه البوابة وبوم المهلب وسوق السلاح وأشياء أخرى قصدوا بإزالتها محو كل رمز يدل على البلاد ولم يكتفوا بإزالة بوابة المقصب فقاموا بإزالة الغولة المجاورة لها، والغولة برج من عدة أبراج خصصت في أماكن مختلفة من السور للاستعمال عند وجود خطر، ولقد سارعت حكومة الكويت إلى إعادة كل شيء إلى ما كان عليه، ومن ذلك: بوابة المقصب.

أقيمت هذه البوابة – من جديد – على النمط الذي كانت عليه قبل هدمها، ولكن الغولة المصاحبة لها اختلفت شكلا. فقد بنيت على هيئة غرفة مستطيلة إلى جانب البوابة تمتد منها مباشرة إلى الشمال قليلا. وليس فوقها ما كان يعتبر وسيلة من وسائل الدفاع، لأن البناة رأوا أنه لا حاجة الآن لذلك. وقد كانت هذه الغرفة تمتد طولا من الشرق إلى الغرب في الوقت الذي استذكره الآن، وهذا تعديل آخر لشكلها.

هأنذا أقف أمام صرح من صروح الماضي، وأستمع إلى الهمس الآتي من بعيد مذكرا إياي ببعض ما مر أمامي مما يتصل بهذا الصرح.

كانت البوابة تقول لي:

– لقد تأخرت كثيرا في حضورك إليّ، فقد جرى تغيير أهم أثر كان واقعا إلى جواري، وهو تلك الحجرة المستطيلة التي كان يسكنها حارسي: أبو خالد. وكان هذا قد أمضى عمره كله في حراستي، وهو بحكم عمله جالس على طريق الذين يمرون بهذا المكان سائرين بمحاذاة ساحل البحر – غربا – إلى ما هو أبعد من مكاني هذا. وكانت لهذا الرجل صلات طيبة مع هؤلاء المارة، وهو يرى بعضهم بصفة يومية.

وقالت لي البوابة:

– أذكرك – عندما كنت صغيرا – حين تأتي إلى (الغولة) وهي الحجرة المستطيلة التي تعهدها، وكنت مع جدك سليمان الجراح، يرحمه الله. فأحتفي بكما، وأرتاح إلى أحاديثه الممتعة، ثم أسارع إلى إعداد القهوة التي يحبها ويثني علي بسبب إتقاني لصنعها، ثم تخرجان معا إلى الغرب من موقعي بمحاذاة الساحل، وتعودان بعد فترة، فأراكما تتجهان شرقا من حيث أتيتما. وأراك – أيضا – عندما أذهب إلى السوق من أجل شراء بعض حاجاتي، وكان والدك – يرحمه الله – يعرفني، وقد اكتسب من جدك عادة السير بمحاذاة البحر، وله مرور دائم بمكاني.

سألت:

– إذن فقد استقبلت أناسا كثيرين، فمن الذي تذكره من هؤلاء المارين؟

قال:

– لا أستطيع أن أتذكر كل من مر بي، لأن بعضهم كان يمر مرورا خاطفا بحيث لا يعلق في ذاكرتي. ولكني أذكر شخصا بعينه كانت معرفتي به مقاربة لمعرفتي بجدك وأبيك، وهذا الشخص هو المرحوم سليمان بن مسند، الذي كانت كنيته: أبو مسند، وكان يمر بي يوميا. وصارت لي به صلة قوية.

وعدت إلى الذكريات فأنا بدوري أعرف هذا الرجل، بل يعرفه كل أقراني، وقد كتبت عنه يوما ما يلي:

توفي سليمان بن مسند (أبو مسند) في سنة 1969م، وكان ينقل للأطفال من ساحل البحر بعض القواقع التي كانوا يحبونها ويستغلونها لألعابهم. وكان يسعده وهو عائد من جولته متجها إلى المحل الذي يعمل به في السوق أن يجتمع عليه أولئك الصغار الذين كانوا في انتظاره.

وكان مقر عمله في الطريق الضيق الواقع حاليا إلى الشرق من سوق واجف، وإلى الغرب من شارع عبدالله السالم.

وكان مشهورا بإجادته لكل ما يتعلق بالأقفال والمفاتيح، لا يصعب عليه شيء منها.

●●●

شغلت بهذا الجو الذي نقلتني إليه ذكرياتي عندما شاهدت تلك البوابة، فعدت إلى ذلك الزمن الذي كنت فيه صبيا أرافق جدي في جولته اليومية، وأستنشق هواء البحر، ممتعا نفسي بالنظر إلى الطيور البحرية البيضاء.

لقد أحيا همس أبي خالد الخفي ذكرياتي حتى لأكاد أراه وهو يعد القهوة، وأسمعه وهو يتحدث، ثم أنظر إليه حين كان سائرا إلى السوق من أجل شراء ما يحتاج إليه من غذاء.

●●●

ما هذا؟.....

أشعر الآن وكأني قد أفقت من نوم عميق شاهدت فيه أحلاما تروي حكايات طويلة، رحلت بي إلى الماضي زمانا ومكانا، ولكني بعد أن استرجعت وعيي، واستذكرت كل ما مر بي صرت سعيدا بهذه الرحلة الخيالية التي أعادتني إلى ذلك الزمان، رحم الله رجاله الطيبين، فقد تميزوا بميزات خاصة تجعلنا لا ننساهم.

بوابة المقصب قديما قبل هدمها من قبل الغزاة العراقيين